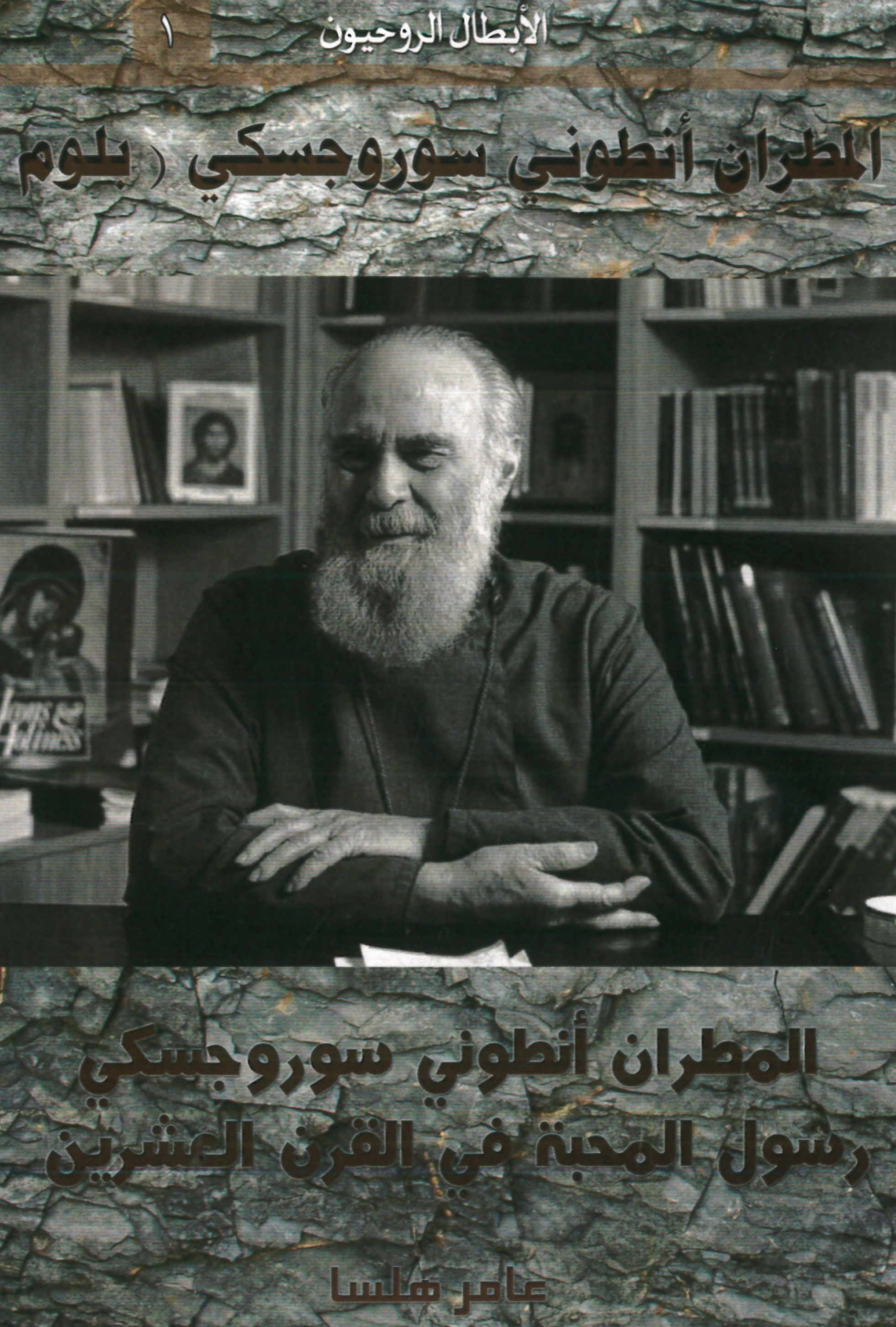

الأبطال الروحيون ١
المطران أنطوني سوروجسكي (بلوم)
المطران أنطوني سوروجسكي
رسول المحبة في القرن العشرين
عامر هلسا

سلسلة الأبطال الروحيون ١

المطران أنطوني سوروجسكي

مكتبة الجبل للنشر والتوزيع

التراث السلافي الأرثوذكسي

الكتاب : المطران أنطوني سوروجسكي.

الكاتب : عامر كامل خليل (هلسا).

الناشر : مكتبة الجبل للنشر والتوزيع .

الطبعة : الأولى ، ٢٠١٧.

رقم الإيداع : ٢٠١٧/٥٩٤٥

للطلب داخل المملكة الأردنية الهاشمية :

٠٠٩٦٢٧٩٦٥٠٠٣٣٢

للطلب داخل لبنان وسوريا :

من داخل لبنان (٠٣٦٠٣٧٨٣) من خارج لبنان ٠٠٩٦١٣٦٠٣٧٨٣

للطلب داخل جمهورية مصر العربية :

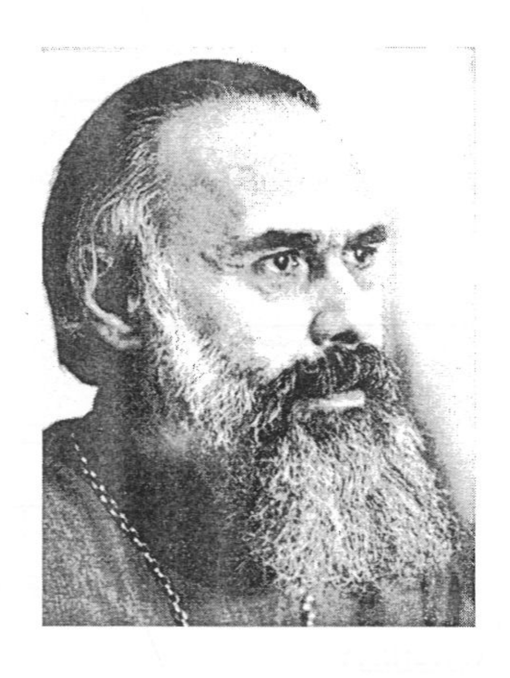
دار مجلة مرقس : ٢٨ شارع شبرا ٢٥٧٧٠٦١٤

المطران أنطوني سوروجسكي (بْلوم)

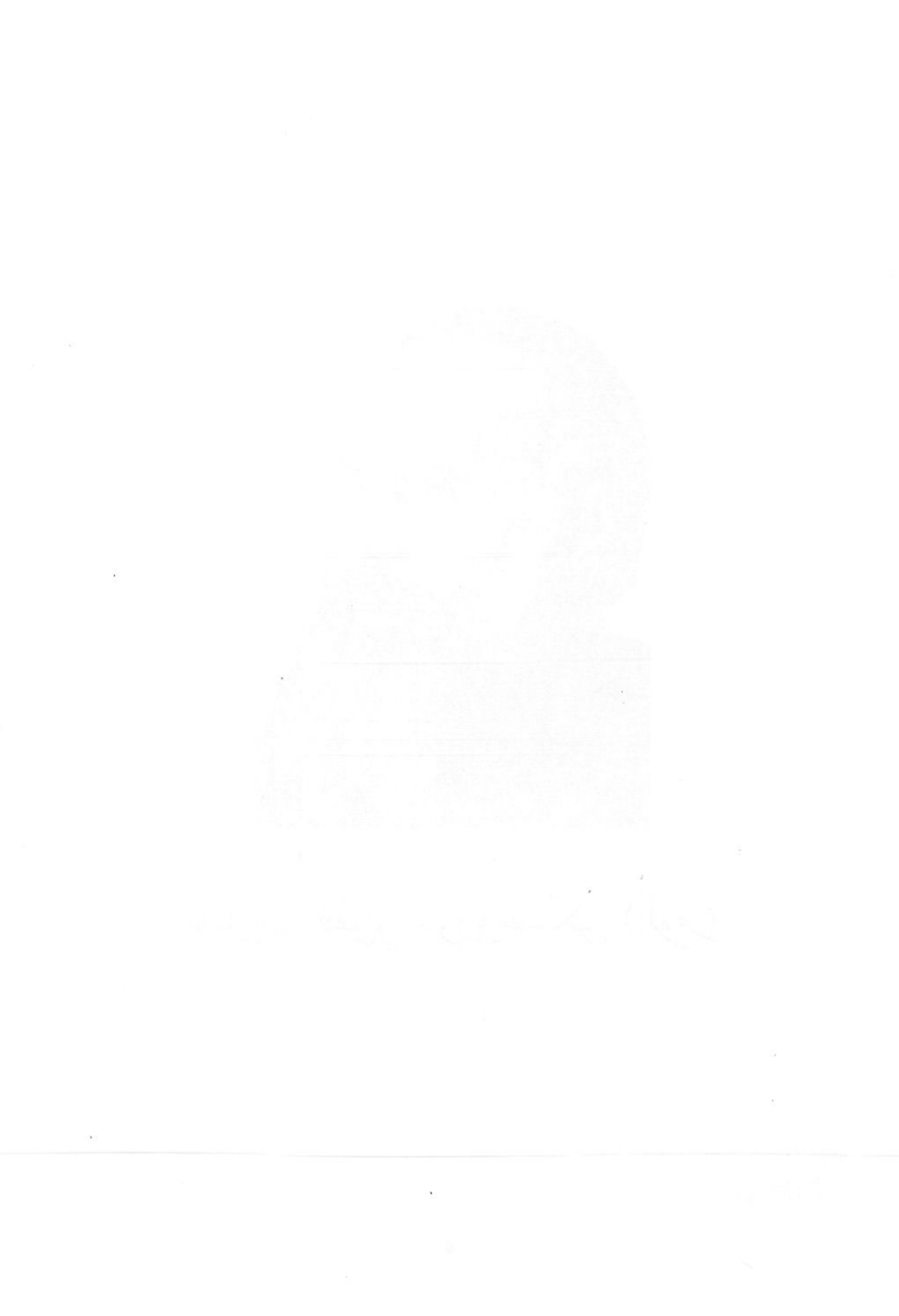
الكاتب / عامر هلسا

مراجعة : الدكتورة / يوليا بيتروفا





المطران أنطوني سوروجسكي (بْلوم)



أنطوني سوروجسكي

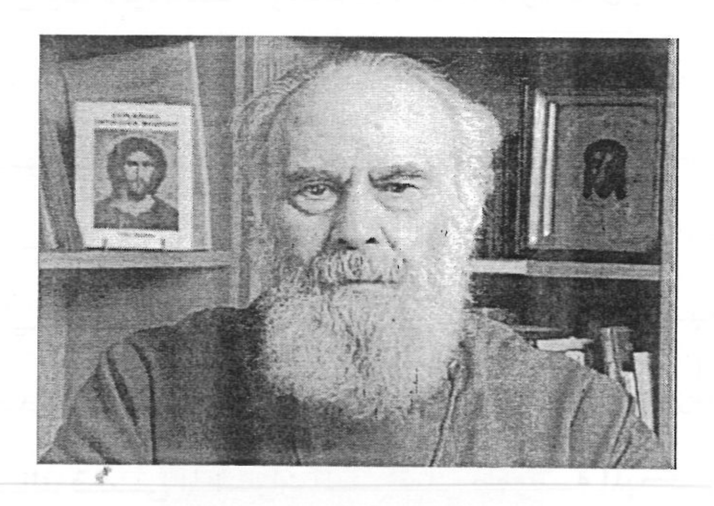
منذ أربعة عشر سنة في الرابع من أغسطس / آب عام ٢٠٠٣ انتقل إلى الربّ المطران أنطوني سوروجسكي. في تلك الأيام حَزِنَت الكنيسة الأرثوذكسية كلها على فقدانه حزناً عميقاً. كان العمل الدؤوب من أجل الأرثوذكسية هو محور حياة المتروبوليت أنطوني في غرب أوروبا ، وهو عمل تبشيري ورعوي أسقفي فتح باباً مميزاً في تاريخ الثقافة الروحية الأرثوذكسية حيث تكلّلت جهوده بولادة ونمو الكنيسة الأرثوذكسية في بلد غير أرثوذكسي (بريطانيا).

إنّ حياة المتروبوليت أنطوني الأرضية لم تستوعب فقط تاريخ الكنيسة الأرثوذكسية الروسية بأحزانها وأمجادها على مدى القرن العشرين بل كانت حياته نفسها هي ذلك التاريخ. يُعتبر سيادة

المتروبوليت أنطوني من أشهر الوعّاظ واللاهوتيين في القرن العشرين. لقد حَظِيَتْ كتبه في تسعينات القرن الماضي بشهرة فريدة سواء عند الذين مارسوا المسيحية أو الذين اهتمّوا بظاهرة التديّن والإيمان. لم تَحِد عظاته أبداً عن الإيمان الأرثوذكسي الحقيقي ولكنها كانت تتعدّى بعيداً عن حدود الأبرشية والكنيسة الروسية وحتى العالم الأرثوذكسي. كانت المحافل المختلفة تدعو المتروبوليت أنطوني لكي يلقي كلمته أمامهم ونتيجة لذلك كانت مساحات إبداعاته واسعة جداً.

إن حياة المتروبوليت أنطوني الإبداعية باهرة ورائعة. فبالرغم من أنه لم يحصل على تعليم لاهوتي إلا أنه كان من أكبر اللاهوتيين الأرثوذكسيين المرموقين والموثوق بهم في العالم بأسره. لم يكن يكتب شيئاً على مدى حياته الطويلة ومع ذلك فهو

يُعتبر صاحباً لأكثر من عشرين كتاب منشور بلغات عديدة في كل العالم. إن العظات وجلسات الحوار المُسجّلة على أجهزة التسجيل الصوتي شكّلت الجزء الأكبر من التراث الأدبي للمطران أنطوني. في سبعينات وثمانينات القرن العشرين انتشرت هذه الأحاديث انتشاراً واسعاً في الاتحاد السوفييتي وكانت تُطبع من المؤمنين على الآلات الكاتبة وتُوزّع سرّاً. منذ عام ١٩٩١ ابتدأ إصدارها في روسيا بشكل دوري.



نشأته وطفولته

وُلد سيادة المطران أنطوني (اسمه في العالم أندري بوريسوفيتش بْلوم) في ١٩ يونيو/حُزيران عام ١٩١٤ في مدينة لوزان (سويسرا) في أسرة موظف في السلك الدبلوماسي الروسي. كان جدّه لأمّه هو القنصل الروسي في الشرق في الإمبراطورية العثمانية السابقة. كان والده أيضاً يعمل في السلك الدبلوماسي وتعرّف على زوجته في مدينة "أرضروم". كان جدّه في ذلك الوقت قد تقاعد وكان يقضي وقته في مدينة لوزان إلى حيث جاء والدا المطران أنطوني لقضاء الإجازة. بعد ولادة ابنهما بقيت الأسرة شهرين في لوزان ثم عادوا إلى روسيا. في البداية عاشوا في موسكو وفي عام ١٩١٥ تم تعيين الوالد في الشرق من جديد وسافروا إلى بلاد فارس. وهناك قضى المطران المستقبلي طفولته المبكرة

حتى السنة السابعة من عمره.

كان أندري منذ طفولته مُولَعاً باللغات. كان يتكلم الفارسية بطلاقة وهو طفل صغير، وفي البيت كانوا يجعلونه يتكلّم بالروسية والفرنسية دون أن يخلط اللغتين. تعلّم في طفوليته اللغة الألمانية (وكان طوال حياته يحبّ قراءة الشعر الألماني من القرون الوسطى)، ثم تعلّم مع الوقت اللاتينية والإسبانية والإيطالية والهولندية والإنجليزية.


France. 1939

بعد اندلاع الثورة في روسيا أصبحت الأسرة في المهجر. في عام ١٩٢٠ سافر أندري مع أمّه وجدّته من بلاد فارس. تنقلوا في أوروبا قرابة الثلاث سنوات وأخيراً استقرّوا في باريس حيث حصلت والدته على عمل. كان والده إنساناً عميق التديّن وكان يعيش حياة شبه نسكية. كان المطران يتذكر ويقول:

"كان والدي يعيش معنا ولكن بمعزل عنا فهو اختطّ لنفسه مساراً آخر: عندما أصبحنا لاجئين في المهجر قرّر والدي بأن الفئة التي ينتمي إليها وطبقته الاجتماعية هي التي تتحمّل المسؤولية الثقيلة عن كل ما حدث في روسيا لذلك ليس له الحق في أن يستغلّ الامتيازات الناجمة عن تربيته وتحصيله العلمي وفئته الاجتماعية. لذلك فهو لم يبحث عن عمل يتناسب مع تعليمه الجامعي ومعرفته للغات الشرقية واللغات الغربية، لكنه أصبح عاملاً بسيطاً وفي مدّة قصيرة كان قد أنهك صحّته وخارت قواه ثمّ عمل موظفاً في مكتب

وهو في الثالثة والخمسين من العمر."

مرّت فترة شباب المطران أنطوني في باريس وظَهرت عليها كل محطات اللجوء والمهجر. عندما حان الوقت لكي يذهب الولد أندري الى المدرسة أخذته أمّه إلى مدرسة كاثوليكية (الكنيسة الكاثوليكية رصدت للاطفال الروس اللاجئين معاشاً شهرياً وسكناً داخلياً). بعد أن تمّت إجراءات القبول قالوا للأم:

- "طبعاً هذا كله يعني بأن الولد سيصبح كاثوليكياً".

حينئذ قال أندري لأمّه:

- "لنذهب من هنا، لا أريدك أن تبيعيني لهم".

يتذكر المطران لاحقاً:

"طبعاً أنا كنت مرتبطاً بالأرثوذكسية وبالأرثوذكسية

الروسية برابطة الدم. ولكنني كنت في المدرسة وفي البيئة المحيطة أتعامل مع الغير الأرثوذكسيين أكثر إلا أن "الغير أرثوذكسية" لم تستهوِني أبداً، بدا لي بأن "الغير أرثوذكسية" غريبة عني وبأنها شكلية وباردة وغير حقيقية".

حياة الغربة

اِلتحقَ أندري بإحدى المدارس للفقراء في أطراف باريس:

"أرسلوني لأعيش في مدرسة داخلية من أسوأ المدارس وكانت في أطراف باريس في حيّ قذر، كانت حتى الشرطة بعد الغروب لا تدخل تلك الأحياء من كثرة الجرائم... كم تعرّضت لضرب مبرّح بلا رحمة ... كان من الطبيعي أن يتعرّض التلميذ الجديد للضرب في السنة الأولى لحين أن يتعلّم الدفاع عن نفسه. لذلك كان من الممكن أن يُضرب التلميذ على أعين المدرّسين لدرجة أن يتمّ نقله إلى المستشفى.

لكن ما تعلّمته هناك حينئذ عدا عن تحمّل الألم جسدياً هي أمور كثيرة قضيت بعدها وقتاً طويلاً في التخلّص منها مثل:

أوّلا - كل إنسان من أي جنس ومن أي سن وبأي حجم هو عدو ويشكّل خطراً عليّ.

ثانياً - لا تستطيع البقاء حياً إلا إذا أصبحت كلياً بدون أحاسيس وذا قلب حجري.

ثالثاً - لا تستطيع العيش إلا بقانون الغاب".

واستطرد المطران قائلاً:

"عاشت أمّي في غرفة صغيرة جداً في فندق وكان صاحب الفندق يسمح لي بالبقاء في النهار مع أمي ولكن كان من غير المسموح لي أن أبيت معها في الغرفة. كانت أمّي تخرج في السادسة مساء من الفندق ممسكة بيدي بطريقة استعراضية ليلاحظ صاحب الفندق بأني قد خرجت، ثم كانت تعود

وتتحدّث مع صاحب الفندق في أي موضوع وأثناء ذلك كنت أتسلل من تحت قدميْ أمّي ومن تحت مكتب صاحب الفندق وأعود إلى الغرفة لأبيت مع والدتي ... كان هذا الأمر مؤذياً جداً لي وهو أن تشعر بأنك زائد وغير مرغوب فيك وليس لك مكان البتة".

أما فترة فتوته فيتذكر المطران أنطوني قائلاً:

"لم أكن إنساناً اِجتماعياً أبداً، أحببت القراءة وكنت أحبّ أن أعيش مع أفكاري وأحببتُ المنظمات الروسية. كنت أنظر اليها كمكان لصقلنا".

كانت باريس في ذلك الوقت هي مركز الهجرة الروسية. لقد أُسّست في فرنسا المنظمات الشبابية الروسية التي عدا عن تنظيمها للمخيّمات الصيفية والرحلات كانت تُطعّم في الشباب الوعي القومي (الوطني) والثقافة الروسية وتعلّمهم الانضباط

العسكري. كان أندري يأمل بأن يعود يوماً ما إلى روسيا ويعيد كل ما جمعه وتعلّمه في الغرب إلى وطنه. بعد فترة ترأس المطران أنطوني بنفسه أحد المخيّمات الصيفية (في ذلك الوقت عاش في جنوب فرنسا أكثر من ألف شاب وشابة من الروس). كان أهله في البيت يتكلمون الروسية فقط وكل وقت فراغه كان يقضيه في المنظمات الروسية. لم يخالطوا الفرنسيين إلا في الضرورة، ولم يقتربوا من الثقافة الغربية بقلوبهم.

عندما بلغ أندري الرابعة عشرة من عمره استطاع لأوّل مرة أن يقيم مع أمّه وجدّته ولأجل ذلك كانت سعادته لا توصف. لكن بعد شهرين أو ثلاثة حدث ما ليس بالحسبان:

"خاف أندري من السعادة".

قبل ذلك كان الهدف في الحياة هو أن تنجو سليماً في كل لحظة... أن تعرف أين ستنام الليلة، كيف تحصل على ما تأكله ... وعندما تلاشى صراع البقاء هذا وجدتُ بأن الحياة أصبحت فارغة، فهل يمكن أن أبني كل حياتي على أن جدّتي وأمّي وأنا نحبّ بعضنا البعض ولكن بلا هدف؟ ليس هناك أي عمق في ذلك وليس هناك أي خلود ولا أي مستقبل ... وتصوّرتُ:

" إذا كانت الحياة هكذا بدون هدف كما بدا لي فجأة - سعادة بلا هدف - فأنا لا أقبل أن أعيش. فقطعتُ عهداً على نفسي- بأني إن لم أجد هدفاً للحياة في خلال سنة واحدة فسأنهي حياتي بالانتحار، لأني لا أقبل أن أعيش من أجل سعادة تخلو من هدف".

في سن الرابعة عشرة كان أندري ملحداً مكتملاً:

"... أمّا فيما يخصّ الكنيسة فكان اتجاهي هو ضدّ الكنيسة تماماً وذلك بسبب ما رأيته في حياة زملائي الكاثوليك أو البروتستانت، وهكذا بالنسبة لي لم يكن الله موجوداً والكنيسة كانت ظاهرة سلبية بحتة".

بعد تلك الحادثة المذكور أعلاها في المدرسة الكاثوليكية أدار أندري ظهره للكنيسة:

"... بعد هذه الحادثة كنت قد أنهيت كل شيء مع الكنيسة لأنه تولّد عندي شعور وهو:

إنْ كانت الكنيسة هكذا فلا داعي مطلقاً للذهاب إليها والاهتمام بها...".

اهتداؤه إلى المسيح

ذات مرّة عندما كان متواجداً في المخيّم الصيفي وجد نفسه بالصدفة بين المستمعين إلى محاضرة لكاهن روسي أرثوذكسي كان قادماً ليلتقي أي

الشباب. ما قاله الكاهن (وكان هو الأب سيرجي بولغاكوف *) لم يعجب الشاب أندري، فالمثال الأعلى للتواضع والوداعة الذي تكلم عنه الواعظ كان غريباً عنه:

"... كل ما قاله الواعظ جعلني في حالة من الغيظ بحيث لم أستطع أن أتوقف عن سماع كلامه". بعد المحاضرة توجّه أندري إلى البيت لكي يبحث عن الإنجيل:

---

* الأب سيرجي بولغاكوف (١٨٧١- ١٩٤٤) – كاهن ولاهوتي وفيلسوف مشهور. دخل في قائمة المثقفين الروس الذين طردهم لينين من الاتحاد السوفييتي في عام ١٩٢٢. كان أحد مؤسّسي معهد اللاهوت الأرثوذكسي في باريس وترأسّه خلال ١٩ سنة. بذل جهوداً كبيرة لتربية الشباب الروس الروحية في فرنسا وصار مؤسساً لحركة الطلاب الروس المسيحية ومرشداً ملهماً لأعضائها.

حاولـت أن أجـده لـكي أضـع حـدّاً لهـذه المسـألة. ولم يخطـر عـلى بالي بأني لـن أنـتهي مـن هـذه المسـألة... فاكتشـفتُ بأن الأناجيـل هي أربعـة ... فقـرّرت أن أقـرأ أقصر إنجيـل فـيهم. وهنـا تم اصـطيادي... لأني لـو قـرأتُ إنجيـلاً آخـر لكنـت قـد وجـدت صـعوبة في الفهـم، حيـث أنّ وراء كل إنجيـل خلفيـة ثقافيـة. أمـا مـرقس فكتـب إنجيله للشـباب الهمـجي المتـوحش مثلي - للشباب الروماني.

لم أكـن أعـرف هـذا، ولكـن الله كان يعـرف ومـرقس كان يعـرف لعـله لـذلك كتـب إنجيله أقـصر مـن باقي الأناجيـل. وهـا أنا جلسـت لأقـرأ. كنـت أقـرأ بـبطء وذلـك لأن اللغـة غـير مألوفـة وبـين الإصحـاح الأول والإصحـاح الثالـث مـن إنجيـل مـرقس شـعرتُ فجـأة بأن المسـيح واقـف في الجهـة المقـابلة مـن الطـاولة. وكان هـذا الشـعور عـلى درجـة مـن العجـب والدهشـة بحيـث أني توقفـت عـن القـراءة لأنظـر. نظـرت طـويلاً ولم أرَ شـيئاً ولم أسمـع شـيئاً ولم أشـعر بشيء، لكـن حـتى عنـدما كنـت أنظـر أمـامى

حيث لا يوجد أحد كان عندي يقين واضح بأن المسيح بلا شك واقف هناك. أتذكر أنني ألقيت برأسي إلى الوراء وفكّرت:

إذا كان المسيح يقف هنا حياً فهذا يعني بأنه هو المسيح القائم من الأموات وهذا يعني أنني عرفت من خبرتي الشخصية أنّ المسيح قام من الأموات وبالتالي كل ما كُتب عنه هو صحيح ...

في الصباح التالي خرجت من البيت ومشيت كما في عالم قد تحوّل وكنت أنظر إلى كل شخص يصادفني وأفكر:

لقد خلقك الله بالمحبّة، والله يحبّك! أنت أخي وأنت أختي... أريد أن أكون مع الله لذلك سأحبّ جميع الناس حتى لو أنهم قطعوني إلى أشلاء وسكبوا عليّ الماء المغلي فعلى الرغم من ذلك سأحبّهم".

هذا اللقاء مع المسيح حدّد مسار حياته كلها ومحتواها:

"... شعرت بأنه ليس هناك مهمّة أخرى في الحياة سوى أن تقتسم مع الآخرين هذا الفرح الذي يحوّل الحياة والذي انكشف لي من خلال معرفة الله والمسيح. وحينئذ بدأت وأنا ما زلت فتىً أتكلم عن المسيح في وقت مناسب وغير مناسب، في المدرسة وفي المترو وفي مخيّمات الأطفال الصيفية وكنت أخبّر كيف انكشف لي المسيح:

مثل حياة ومثل فرح ومثل هدف ومثل شيء جديد قد جدّد كل الأشياء".

بعد قراءتنا لكل عظة من عظات المطران أنطوني نتيقن بأن المحتوى الرئيسي في خدمته كان التبشير بالمسيح بفرح في روح العهد الجديد. رغب في إيصال خبرته الشخصية إلى الناس، لذلك نلاحظ

الكثير من الخصوصية في كلامه.

سنوات شبابه

يتذكر المطران ببعض السخرية: "... كنت حينها أفكر في أمور عظيمة، فكرتُ أن أذهب الى البرّية وأن أصبح قديساً - فكرت في الكثير من الأمور. ولكن اتضح بعد ذلك أن البراري بعيدة ولم يتبق إلا القليل منها، وأنا ليس عندي نقود حتى لمغادرة باريس. لذلك كان لا بدّ أن أنسى موضوع البرّية. وتناقشت مع أبي وأمي حول دراستي المستقبلية فكان القرار أن أدرس الطب رغم أن هذا شكّل عبءاً ثقيلاً على والديّ. لأني كنت أعتقد (كما أبي أيضاً) بأني إن أصبحت طبيباً أستطيع أن أعيش في نفس الوقت حياة مسيحية حقيقية وأن أكرّس كل حياتي لخدمة الناس، وفي الوقت نفسه سأروي ظمأي للعلم، لأن الطبيب يجب أن يكون متعلماً ويقدر أن يحوّل كل معرفته العلمية إلى محبّة

حقيقيـة متجسّـدة. كنـت أفكـر بأني عنـدما أصـبح طبيبـاً قـد أسـافر إلى الريـف الفرنسي حيـث توجـد تجمّعـات للـروس الأرثـوذكس الفقـراء الـذين بـلا كنيسـة ومـن الممكـن أن أكـون كاهنـاً وطبيبـاً. لكـن هـذه الأفـكار مثـل كل الأفـكار العبقريـة لم تتحقـق... والتحقـت بكليـة العلـوم الطبيعيـة في جامعـة السـوربون ثم بكليـة الطـب. كانـت فـترة صـعبة جـداً حيـث كان علـيّ أن أختـار بـين الكتـاب وبـين تنـاول الطعـام، وفي تلـك السنة استنزفت صحّتي لدرجة ملحوظة...".

لقاء عجيب تم بين أندري وأبيه الروحي

"ذهبـت إلى الكنيسـة الوحيـدة التابعـة لبطريركيتنـا في أوروبا في ذلـك الوقـت (في عـام ١٩٣١ كنـا حـوالي خمسـين شخصـاً فقـط). أتيـت في نهايـة القـداس (بحثـتُ طـويلاً عـن الكنيسـة لأنهـا كانـت في قبـو) وقـابلني راهـب كاهـن هيئتـه أثّرت فيّ جداً.

أتعلمون؟.

هناك مقولة في جبل آثوس تقول بأنك لن تستطيع أن تترك كل شيء في العالم قبل أن تشاهد على وجه أحد الناس إشراقة الحياة الأبدية... فاقتربت منه وقلت:

أنا لا أعرف من تكون ولكن هل تقبل أن تكون أبي الروحي؟".

كان ذلك الكاهن هو الأرشمندريت أثناسيوس (نيتشاييف).

في ١٠ سبتمبر/أيلول عام ١٩٣٩ قبل التحاقه بالجيش الفرنسي كطبيب جرّاح أدّى الشاب أندري بلوم ذو ٢٥ ربيعاً النذور الرهبانية بالخفية. لم يكن هناك وقت لإتمام رسامته الرهبانية لأنه لم يبق سوى خمسة أيام للالتحاق بالجيش. تحدّث المطران عن اختياره لطريق حياته هكذا:

"كنتُ أعلم مسبقاً بأني لن أتزوج لأني كنت على قناعة تامة بأني لن أقدر أن أكرّس نفسي بالكامل لمرضاي لو كنت مرتبطاً بارتباطات أخرى أو لو كانت عندي اهتمامات أخرى غيرهم. وهنا اجتمعت تصوّراتي عن الطبّ ورغبتي في أن أتعلّم الصلاة وأن أعيش ملء الحياة الروحية بكل قوّة يمكن أن يعطيني إياها الله... كنت مجرّد طبيب كالباقين، أمّا حياتي الروحية الخاصّة بي فكانت سرّية مع الله".

أثناء الاحتلال الفاشي عمل أندري بلوم طبيباً مع المقاومة السرّية ضد الفاشية. عند عمله في مستشفى باريس في قسم الاختبار ابتكر بالاتفاق مع رفاقه طريقة ليحولوا دون إرسال الناس إلى ألمانيا للعمل الإجباري فكانوا يرسمون أعراض السلّ على صور الأشعة (كان الألمان يخافون الأمراض المعدية). بعد الحرب استمرّ في مهنة الطب حتى عام ١٩٤٨. مئات المرضى والجرحى والذين ينازعون الموت مرّوا من

تحت يديه. كانت هذه بداية خدمته الرعوية وذلك لأنّ الطب لدرجة ما يشبه الخدمة الرعوية، وفي التقليد الآبائي كان عمل الكاهن يُشبّه بمهارة الطبّ. كان الراهب أنطوني يقدر أن يجلس لساعات عند سرير الجندي الجريح الذي على وشك الموت ويتكلم معه طالما كان بمقدور الجندي الكلام ثم كان يصلّي له بصمت عندما كانت روحه تغادر إلى العالم الآخر.

بقي أنطوني راهباً متخفياً لعشر سنوات. كان الأب أثناسيوس يؤجّل رسامته قائلاً:

"أنت لست مستعدّا أن تهب نفسك للنهاية، لم يحن وقت رسامتك بعد طالما أنك لا تزال تقلق على والدتك أو جدّتك لأنك لم تلقِ ثقتك على الله كلياً".

تمّت رسامته بالثوب الرهباني باسم أنطوني

(تيمُنــاً باســم القــديس أنطــوني مؤسّــس ديــر مغــاور كيـيــف) * في ١٦ أبريـــل عـــام ١٩٤٣. تـــوفي الأب أثناسيوس بعد رسامته بثلاثة شهور.

"بقيت طويلاً لا أعرف ماذا أفعل لأنه بعد هذه الخبرة في إيجـاد أب روحي كان مـن غـير المعقـول أن أطـوف عـلى الآباء الكهنـة عارضـاً نفسي عليهم ... أتـذكر أني جلسـت في حجـرتي وكنـت في السـابعة والعشرين أو الثامنـة والعشرين مـن العمـر وسألت نفسي سؤالاً:

ما العمل؟.

وفجأة وبكل وضوح سمعت في داخلي صوتاً يقول:

"لمـاذا تبحـث عــن أب روحي؟ أنا حي...". بعــد ذلــك توقفت عن البحث".

---

* راجع كتاب لافرا مغاور كييف.

خدمته الرعوية

في عام ١٩٤٨ دعاه المطران سيرافيم لوكيانوف (إكسرخوس بطريركية موسكو) إلى الكهنوت ورسمه شماساً (٢٧ أكتوبر/تشرين الأول) ثمّ كاهناً (١٤ نوفمبر/تشرين الثاني) وأرسله للعمل الرعوي إلى إنجلترا كرئيس روحي للائتلاف الأرثوذكسي الأنجليكاني الذي يحمل اسم القدّيس الشهيد ألبانيوس والقدّيس سيرجي فانتقل الراهب الكاهن أنطوني للسكن إلى لندن. في ١ سبتمبر/أيلول عام ١٩٥٠ تم تعيينه راعياً لكنيسة الرسول فيلبس والقدّيس سيرجي في لندن. ثم تمت إعادة تسمية هذه الكنيسة التي قدّمتها الكنيسة الأنجليكانية وصارت مكرّسة لرقاد والدة الإله وجميع القدّيسين فأصبح الأب أنطوني راعياً لها في ١٦ ديسمبر /كانون الأول عام ١٩٥٦.

وفي فصح عام ١٩٥٦ حصل على رتبة أرشمندريت. في ٣٠ / ١١ من عام ١٩٥٧ تمت رسامته الأسقفية كأسقف مساعد لإكسرخوس بطريركية موسكو في أوروبا الغربية. في ١٠ / ١٩٦٢ تم تعيينه راعياً لأبرشية "سوروج" الجديدة المستقلة التي تم تأسيسها في بريطانيا ومُنح رتبة رئيس أساقفة:

"في ذلك الوقت عندما أصبحت أسقفاً كانت عندنا رعيتان فقط هما رعية لندن التي كانت تنمو ورعية أكسفورد... أبرشية سوروج كانت فريدة من نوعها. لقد صارت الآن متعدّدة القوميات واللغات. ابتدأت في عام ١٩١٩ كرعية صغيرة تشكّلت من المهاجرين الروس فقط...".

في عام ١٩٦٢ أصبح سيادته أسقفاً لكرسي أبرشية بريطانيا العظمى وإيرلندا ومُنح لقب رئيس أساقفة لندن وبريطانيا. هذه التسمية أثارت عنده عدم الارتياح، لذلك توجّه المطران أنطوني إلى

البطريكية بطلب منحه لقباً روسياً:

"أنا نفسي روسي الأصل وثقافتي روسية وقناعاتي روسية وأشعر بأن روسيا وطني، وعدا عن ذلك فإن الغالبية العظمى من رعيتي في ذلك الوقت كانت من الروس. لم أرغب أبداً بأن يكون لي لقب أجنبي. ... هناك عادة في الكنيسة الروسية وهي أنه عندما يتم تشكيل أبرشية جديدة خارج الحدود الروسية بأن يُعطى لها اسم أبرشيةٍ كانت قائمة قديماً ولكنها اندثرت مع الزمن. لذلك أعطوني لقب "سوروجسكي*".

---

* سوروج – اسم سلافي قديم لمدينة "سوداك" الواقعة في الجنوب الشرقي لشبه جزيرة القرم (اسمها البيزنطي هو Σουγδαία). كانت أبرشية سوروج القديمة قائمة في الفترة ما بين القرنين الثامن والخامس عشر، وبعد استيلاء الأتراك على القرم تمّ دمجها بأبرشية أخرى.

منذ ١ / ١٩٦٣ تم تعيينه قائماً بأعمال إكسرخوس بطريرك موسكو في أوروبا الغربية. في ٢٧ /١ عام ١٩٦٦ تمت ترقيته لرتبة متروبوليت وتم تثبيته في منصب إكسرخوس أوروبا الغربية، فاستمرّ في خدمته هذه حتى ربيع عام ١٩٧٤ عندما تمت تلبية طلبه بأن يتم إقالته من منصبه هذا لكي يتفرّغ لتدبير أمور أبرشيته التي كانت تنمو وتتزايد رعيته بشكل مضطرد. كانت المهمّة الرئيسية بالنسبة له هي خدمة رعية لندن التي كرّس لها أكثر من خمسين عاماً من حياته. هنا بالذات تكلّم بأغلب عظاته التي تمّ تسجيلها ثم طباعتها وانتشرت بين المؤمنين الأرثوذكس.على مدى سنوات خدمة المطران أنطوني في بريطانيا كبرت الرعية الوحيدة التي كانت تتكوّن من المهاجرين الروس وأصبحت أبرشية متعدّدة القوميات لها تنظيمها القانوني ونظامها الداخلي ونشاطاتها المختلفة.

من بين رعية المطران أنطوني كان كثير من الذين كانوا في السابق أنجليكان، ولكنه لم يجلب أحداً قاصداً إلى الكنيسة الأرثوذكسية، فجميعهم جاؤوا ملهمين ومتأثرين بعظاته عن الله الحي وبكتبه التي تتكلم عن هدف الحياة وصلب محتواها. ذات مرّة وقف سيادته في أحد شوارع أكسفورد وابتدأ يتكلم عن المسيح واجتمع حوله الناس بأعداد كبيرة يسمعونه باهتمام وتوتر بالغ. في مرّة أخرى دعته مجموعة من شباب "الهيبيز" إلى اجتماعهم قائلين:

"أنت مثلنا. أنت بلحية ونحن ملتحون، أنت تلبس ثوباً طويلا ونحن أيضاً نلبس الثوب الطويل، تفضل بزيارتنا".

فذهب إليهم وجلس معهم حتى الصباح يحدّثهم عن الله وسمع منهم ما أرادوا أن يقولوا. لم يَزْدَرِ المطران أنطوني أبداً

بالغير أرثوذكسيين والغير مؤمنين. لقد كان مستعداً أن يتكلم عن الله أمام أي إنسان وفي أي محفل.

مما يميّز إبداع المطران أنطوني هو أنه لم يكتب شيئاً، فكانت كلمته تولد كخطاب شفوي للمستمعين، لكن ليس كخطاب عامّ لمجموعة من الناس بل لكل إنسان محتاج الى كلمة حية عن الله الحي. لذلك كل الإصدارات تم طبعها من أشرطة التسجيل الصوتي وتحتفظ بعبق الكلمة الحية. أوّل الكتب عن الصلاة وعن الحياة الروحية صدرت باللغة الانجليزية في ستينات القرن الماضي وتمّت ترجمتها إلى لغات عديدة. في السنوات الأخيرة انتشرت أحاديث وعظات المطران أنطوني في روسيا على مدى واسع جداً ككتب مطبوعة أو مقالات على صفحات الإصدارات الدورية سواء الكنسية أو المدنية. مجموع إصدارات أعمال المطران أنطوني

يقترب من المليون نسخة. في روسيا كانت كلمة المطران أنطوني تبثّ لعشرات السنين من خلال البرامج الدينية في إذاعة ال بي بي سي باللغة الروسية. كان قدومه إلى روسيا يعدّ حدثاً مميزاً دائماً، وكانت التسجيلات الصوتية لجلساته وعظاته تنتشر سريعاً في أوساط المؤمنين خارج حدود موسكو.

ذكريات المطران هيلاريون عنه

يتذكّر المطران هيلاريون* (ألفييف) عن هذه اللقاءات ويقول:

"أول مرة رأيت فيها المطران أنطوني كانت في بداية الثمانينات، في شقة كاهن مشهور بموسكو حيث جاء المطران

---

*متروبوليت فولوكولامسك في الكنيسة الروسية ورئيس دائرة العلاقات الخارجية فيها.

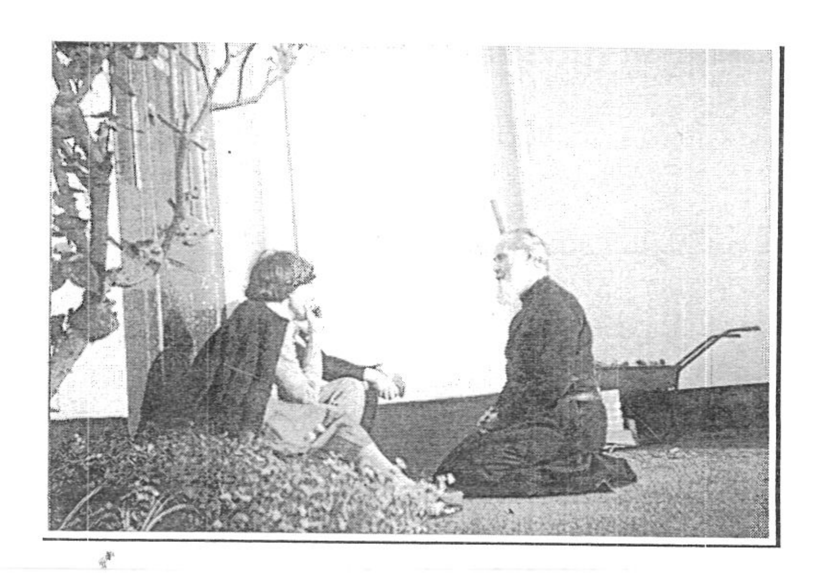
أنطوني سرّاً ليلتقي بالشباب. كنّا نحو أربعين شخصاً في غرفة صغيرة امتلأت بنا تماماً. أتذكر بأننا جلسنا على الأرض وانتظرنا طويلاً بمجيء سيّدنا الذي كان بالنسبة لنا نحن الشباب المسيحيين أسطورة حيّة. دخل بسرعة إلى الغرفة وإذا بشخص متوسّط الطول بلحية بيضاء وعينين مشعّتين.

لقد أذهلتني نظرته المشتعلة والثاقبة أكثر من كلماته. تكلّم على ما أذكر عن التواضع، عن أن التواضع هو ليس مجرّد إذلال الذات المصطنع والبحث الدائم في خطايانا الخاصّة ولا أن ندوس على أنفسنا في التراب. التواضع هو نتيجة لقاء بين الإنسان والله وجهاً لوجه، فأمام عظمة الله اللامتناهية يشعر الإنسان كم هو تافه وعديم القيمة. في نهاية الحديث وجّه الحاضرون الأسئلة وأجاب المطران أنطوني عليها بذكاء وبشجاعة وبصراحة. لم تكن فيه أدنى ظل لازدواجية الفكر التي كانت من شيمة الحياة السوفييتية، كما لم تكن فيه المعسولية المصطنعة والكلام المنمّق. كان كلامه بسيطاً وقوياً

وخارجاً من أعماق قلبه ويصل إلى أعماق قلوب مستمعيه. لم يتكلم عن كتاب بل عن خبرته الشخصية لذلك كل فكرة من أفكاره كانت لها أهمية خاصة.... وبعد يوم أو يومين رأيته مجدداً، هذه المرّة بين جدران أكاديمية موسكو اللاهوتية حيث كان يحدّث الطلاب عن الخدمة الرعوية. الطلاب الإكليريكيون هم أناس معتادون على سماع المحاضرات اللاهوتية والعظات ومن الصعب أن تدهشهم بأي جديد في هذا المجال، لكنهم كانوا يستمعون إلى المطران أنطوني مكتومي الأنفاس باهتمام بالغ ولم يفوّتوا كلمة واحدة من كلامه.

"أنا لست لاهوتياً، وستتأكّدون سريعاً من ذلك. لكن سأحدّثكم عن أمور من خبرتي الشخصية"- هكذا ابتدأ المطران أنطوني حديثه. تكلّم طويلاً - كيف قبل النذور الرهبانية متخفياً قبل ذهابه إلى الجبهة وكيف عمل طبيباً جراحاً في المقاومة الفرنسية وكيف أصبح كاهناً ثم أسقفاً وخدم روحياً المئات والآلاف من الروس والفرنسيين

والانجليز واليونان، من الأرثوذكس والغير الأرثوذكس. وبعد يوم خدم القداس الإلهي في إحدى كنائس موسكو التي اكتظّت بالمصلّين. أتذكر كيف أنه اجتاز صحن الكنيسة بخطوات سريعة وعمل مطانيات أمام الإيقونات وبارك الشعب ثم دخل إلى الهيكل. كان دخوله إلى الكنيسة لا يشبه دخول الأساقفة المحفوف بالأبهة ولم يكن هناك أي نوع من الاحتفالية. كان المطران أشبه بجرّاح يسرع إلى غرفة العمليات..."



كان المطران أنطوني حائزاً على الدكتوراة الفخرية في اللاهوت من جامعة أبردين لمساهمته في التبشير بكلمة الله وتجديد الحياة الروحية في البلاد، ومن أكاديمية موسكو اللاهوتية لمؤلفاته اللاهوتية والتبشيرية، ومن جامعة كامبردج وأكاديمية كييف اللاهوتية. في عام ١٩٨٣ أشار مجلس أكاديمية موسكو اللاهوتية إلى أن المطران أنطوني قد ألقى خلال ٣٤ سنة من خدمته الرعوية أكثر من ١٠ آلاف محاضرة في المحافل غير الأرثوذكسية وفي الكنائس وأمام الطلبة.

مع كل ذلك لم يكن أبداً عند سيادته من يخدمه في الحياة اليومية، وكان يسكن في غرفة تابعة لنفس كنيسة الرقاد في لندن، وكان الناس يرونه دائماً لابساً قنبازاً قديماً ونعالاً بسيطاً. كان يستقبل الزوّار بنفسه وهو أشبه بقارئ الخورس أو

بقندلفت. مرّة سئل:

من الذي يطبخ لك؟.

- فأجاب:

"يأتي النـــاس الطيّبـــون بالأكل في كـــيس ويضـــعونه عنـــد الباب. ما يرسله الربّ آكله".

كانـــت هـــذه البســـاطة في الحيـــاة وعـــدم اهتمامـــه بـــالأمور المنزليـــة وتركيـــزه علـــى مشـــاكل الآخـــرين واحتياجاتهم الروحية تؤثّر في الناس تأثيراً عميقاً.

رقاده

في فبراير/شباط ٢٠٠٣ تم إجراء عملية جراحية للمطران أنطوني لإزالة ورم خبيث ثم خضع لجلسات الأشعة، ولكن كان الورم منتشراً بشكل كبير. بحسب كلام الأب يوحنا الذي كان ملازماً للمطران كل الوقت، في فبراير/شباط رأى سيادته جدّته في حلم وأرته الروزنامة ودارت الشهور بسرعة وتوقفت عند شهر أغسطس/آب. في ٣٠ يوليو/تموز أصدر المجمع المقدّس قراره بإحالة سيادة المطران أنطوني على التقاعد ليستريح مقدراً جهوده لخير الكنيسة الأرثوذكسية الروسية وللأرثوذكسية المسكونية تقديراً عالياً. بعد عدّة أيام في ٤ أغسطس / آب رقد خادم الرب أنطوني في دار رعاية مرضى السرطان (hospice).

وُضع جسد المطران أنطوني في تابوت في كاتدرائية الرقاد في ١١ أغسطس/ آب ، وبعد صلاة التريصاجيون ابتدأت قراءة الأناجيل دورياً بالروسية وبالإنجليزية من قبل الكهنة والشعب. كانت الكاتدرائية مفتوحة طوال النهار وجاء الكهنة وشعب أبرشية سوروج لوداع راعيهم كما وصل كثيرون من بلاد أخرى.

كان هناك شعور بحضور المطران الراقد كأنه حي، فلقد خدم في هذه الكنيسة قرابة ٤٧ سنة وفي العقود الأخيرة من السنين كان يسكن في نفس المكان. تم تجنيزه ودفنه في ١٣ أغسطس/آب ٢٠٠٣ في مقبرة Brompton Old ، في نفس المكان الذي دُفنت فيه جدّته ووالدته في العامين ١٩٥٧ و١٩٥٨.

عظة في عيد البشارة

عيد البشارة هو يوم الخبر السارّ لأنه وُجدت في كل العالم البشري عذراء مؤمنة بالله وقادرة على الإصغاء والطاعة له إلى درجة أنه من الممكن أن يولد منها ابن الله.

إنّ تجسّد ابن الله هو عمل المحبّة الإلهية – محبة الصليب الخلاصية – والقوة الإلهية من ناحية، ومن ناحية أخرى تجسّد ابن الله هو عمل الحرية البشرية.

يقول القديس **غريغوريوس بالاماس** إنه لولا الموافقة البشرية الحرّة لوالدة الإله لكان التجسّد مستحيلاً كما هو مستحيل بدون الإرادة الإلهية الخلاقة. وفي عيد البشارة هذا نحن نعاين في والدة الإله تلك العذراء التي استطاعت أن تثق بالربّ حتى النهاية بكل قلبها وبكل ذهنها وبكل نفسها وبكل قدرتها.

أمّا البشارة فكانت في الحقيقة رهيبة، فإن ظهور الملاك وتحيّته "*مباركة أنت في النساء ومباركة ثمرة بطنك*" كان لا بدّ من أن يثير في داخل العذراء التي لم تعرف رجلاً ليس فقط الدهشة والرعدة، بل الخوف أيضاً: *كيف يكون هذا؟* .

وهنا نحسّ بالفرق بين إيمان زكريا والد يوحنا السابق – إيمان عميق ولكن متذبذب – وإيمان والدة الإله. أُخبر زكريا أيضاً بأن زوجته ستلد ابناً بطريقة طبيعية بالرغم من شيخوختها، وكان جوابه لهذا الخبر الإلهي هو: كيف يمكن أن يكون هذا؟ **هذا مستحيل! بماذا تبرهن ذلك؟ أي إشارة تستطيع أن تعطيني؟** أما والدة الإله فتطرح السؤال بهذا الشكل فقط: **كيف يمكن أن يحدث هذا لي، فأنا عذراء؟** وردّاً على جواب الملاك أنه سيكون، هي تجيب فقط بتسليمها الكامل إلى يديْ الله:

"هوذا أنا أمة الرب. ليكن لي كقولك" .

كلمة "أمة" في لغتنا المعاصرة تدلّ على الاستعباد، وفي اللغة السلافية كان يسمّي الإنسان نفسه عبداً إذا أعطى كل حياته وكل إرادته للآخر. وهي فعلاً قد أعطت كل حياتها وإرادتها ومصيرها لله وقبلت بالإيمان – أيْ بالثقة غير المدركة – البشارة بأنها ستكون أمّاً لابن الله المتجسّد. وقالت عنها أليصابات البارّة: *"طوبى للتي آمنت أن يتمّ ما قيل لها من قبل الرب"* .

نجد في والدة الإله قدرة عجيبة على تسليم الذات إلى الله كلياً، ولكن هذه القدرة ليست موهبة طبيعية، بل يمكن للإنسان تنمية هذا الإيمان في داخله عن طريق جهاد تنقية القلب والمحبّة نحو الله. كما يقول الآباء: "أرق الدم فستنال الروح". قال أحد الكتّاب الغربيين :

إن التجسّد صار ممكناً عندما وُجدت في بني إسرائيل عذراء استطاعت بكل فكرها وبكل قلبها وبكل حياتها أن تنطق باسم الله بحيث صار الله - الكلمة بذاته جسداً فيها.

هـذه هـي البشـارة الـتي سمعناهـا الآن في الإنجيـل: إن الجـنس البشـري قـد أنجـب وقـدّم لله عـذراءً صـارت قـادرة في حرّيتهـا البشـرية الملكيـة علـى أن تكـون أمّـاً لابـن الله الـذي بـذل نفسـه بإرادتـه لخـلاص العـالم.

آمين.

المطران أنطوني سوروجسكي

٧ أبريل ١٩٨١

المراجع:

Митрополит Антоний Сурожский. Без записок (автобиографический рассказ) // О встрече. – Клин, 2007. – С. 5–51

Апостол любви / док. фильм, реж. Валентина Матвеева, 2005

Биография и религиозное становление митрополита Антония (Блума)

منذ أربعة عشر عام في الرابع من أغسطس / آب عام ٢٠٠٣ انتقل إلى الربّ المطران أنطوني سوروجسكي (بلوم). في تلك الأيام حزنت الكنيسة الأرثوذكسية كلها على فقدانه حزناً عميقاً. كان العمل الدؤوب من أجل الأرثوذكسية هو محور حياة المتروبوليت أنطوني في غرب أوروبا، وهو عمل تبشيري ورعوي أسقفي فتح باباً مميزاً في تاريخ الثقافة الروحية الأرثوذكسية حيث تكللت جهوده بولادة ونمو الكنيسة الأرثوذكسية في بلد غير أرثوذكسي (بريطانيا).

التراث السلافي الأرثوذكسي

Al Jabal